جهود الطهطاوي المسرحية المجهولة

د. سيد على إسماعيل
كاتب مصري

التياترو الفرنسى بالقاهرة والمعروف بالكوميدى الفرنسى – ومكانه حالياً مبنى بريد العتبة - بدأ عروضه المسرحية فى يناير 1869، أى قبل افتتاح الأوبرا الخديوية بعدة أشهر، لأن الأوبرا افتتحت في نوفمبر 1869. وهذا معناه أن أية أخبار تتعلق بالمسرح أو التمثيل في القاهرة قبل نوفمبر 1869 لا بُد وأنها تخص التياترو الفرنسى فقط! وبناءً على ذلك وجدت وثيقة – فى دار الوثائق القومية مؤرخة فى 15 رجب 1286 الموافق 21/10/1869 - عبارة عن أمر من الخديوى إسماعيل صادر من سراى قصر النيل، هذا نصه:

"أمـر كريم منطوقه ناظـر مطبعة بولاق كتـب لمعيتنا فـي 29 الماضى بشـأن مبلغ تسـعة آلاف وثلثمائـة وخمسـين قرشـا وعشـرة فضة ثمـن ألف وخمسـمائة كتاب فصـل التياترو تقدم طبعهـم تركى وعربى. وحيـث إنـه فـى مقتضـى إرادتنا تسـديد هـذا المبلـغ مـن الخاصـة إلـى المطبعـة أصدرنـا أمرنا هـذا إليكم لتجروا تسـديد المبلـغ المذكـور علـى وجها ذكـر. وبما أن تلـك الكتـب باقـى منهـا جانب بعـد الذى صـار تفريقه فالباقى المذكور مرسـول إلى الخاصـة لإبقاء".

هـذه الوثيقـة تُعـدّ كشـفاً ثمينـاً؛ لأنها تثبـت أن مطبعـة بـولاق طبعـت ألـف وخمسـمائة نسـخة مـن نـص مسـرحي باللغتيـن العربيـة والتركيـة، وهذه النسـخ تـم توزيع أغلبهـا، ولم يبق منهـا إلا القليل. والمسـرحية المطبوعـة مـن المؤكـد أنها إحـدى المسـرحيات التـي تـمّ عرضها في التياتـرو الفرنسـى، ومـن المحتمـل أنهـا مسـرحية الافتتاح، وتم توزيع نسـخها على الجمهـور! ورغـم منطقيـة هذا التفسـير؛ إلا أننـا لـم نقـرأ أن العـرض المسـرحى الأول بالتياتـرو الفرنسـى – أي مسـرحية

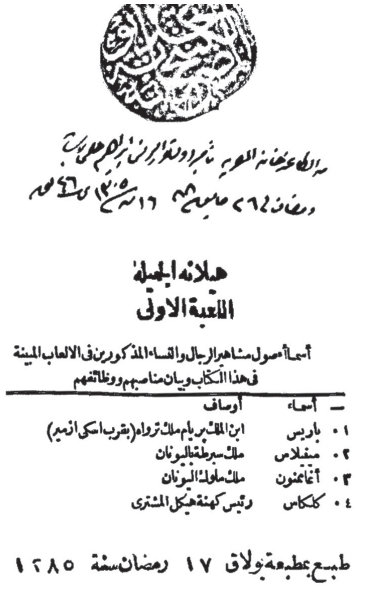

هيلانه الجميلة
اللعبة الاولى

أسماء أصول مشاهير الرجال والنساء المذكورين في الالعاب المبينة في هذا الكتاب وبيان مناصبهم ووظائفهم

أسماء	أوصاف
١. باريس	ابن الملك بريام ملك تروادا (بقرب اسكي اذمير)
٢. مينلاس	ملك سبرطة باليونان
٣. أغاممنون	ملك مولد باليونان
٤. كلكاس	رئيس كهنة هيكل المشترى

طبع بمطبعة بولاق ١٧ رمضان سنة ١٢٨٥

أوبريت هيلانة الجميلة.. ترجمة الطهطاوى

الافتتاح – كانت باللغة العربية أو التركية! والاحتمال المقبول لهذا الأمر، هو أن النسخ المطبوعة بالعربية والتركية، ما هى إلا ترجمة عربية وتركية لنص مسرحى فرنسى تم عرضه فى التياترو الفرنسى!

اكتشافى لهذه الوثيقة، جعلنى أعود إلى كتاب فيليب سادجروف «المسرح المصري في القرن التاسع عشر»، وفيه قال سادجروف عن الترجمات المسرحية الأولى في مصر: "... كانت أول ترجمة من هذا النوع ترجمة أوبريت «أوفنباخ Offenbach» «هيلين الجميلة La Belle Hélène»، التي نشرت في ١٨٦٩م، تحت إشراف الطهطاوى". وعندما عدت إلى المصدر الذى استقى منه سادجروف هذه المعلومات، وجدته مقالة منشورة في مجلة «وادي النيل» بتاريخ 6/1/1871، تحت عنوان «في نوع اللعب النفيس المُسمى بقضاء باريس»، وهى مقالة كتبها صاحب المجلة «عبد الله أبو السعود أفندى» عن أوبرا «قضاء باريس»، التي ستعرض فى دار الأوبرا الخديوية. والغريب أننى لم أجد في المقالة المعنى الذى كتبه سادجروف؛ بأن الطهطاوى أشرف على ترجمة «هيلين الجميلة»، بل ما وجدته يثبت أن الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى هو نفسه مُترجم المسرحية!!

> ما كتبه عبد الله أبو السعود أفندى صاحب مجلة وادى النيل يثبت أن رفاعة الطهطاوى لم يشرف على ترجمة مسرحية "هيلانة الجميلة".. بل هو نفسه المترجم!

يقول أبو السعود أفندى في هذه المقالة، صراحة: ".. ها هو قد شرع في نشر هذه البدعة الجليلة بترجمة اللعبة المسماة باسم «هيلينة الجميلة»، وانتشرت من العام الماضى في أفق

الأدبيات، وظهرت فى أجمل حلل الحسان العربيات. اعتنى بتعريبها بأمر الحضرة الخديوية، وتقريبها لإفهام غواة تلك التصويرات اللعبية، الأديب الشهير والأستاذ الكبير حضرة رفاعة بك أفندى أستاذ كل من له في الديار المصرية معرفة بالعربية واللغات الأجنبية". وهذا القول الصريح، يثبت لنا أن الشيخ «رفاعة رافع الطهطاوى» ترجم مسرحية «هيلينة الجميلة» بأمر من الخديو إسماعيل! وهذا الخبر لا شك فى صحته؛ لأن كاتبه أبو السعود أفندى من رجال المسرح – فهو مُترجم مسرحية «عايدة»، التي عرضت بالأوبرا الخديوية لأول مرة عام 1871 – بالإضافة إلى أنه من أهم تلاميذ الشيخ رفاعة وأقربهم إليه فى هذه الفترة!

والمعروف أن موضوع ليبرتو «هيلانة الجميلة La Belle Hélène» مأخوذ من الأساطير اليونانية، كتبه عام 1864 الفرنسيان: «هنري ميلهاك Henri Meilhac) و(لدوفك هاليفري Ludovic Halévy»، من تلحين الموسيقار «جاك أوفنباخ Jacques OFFENBACH». وبناء على ذلك، نستطيع أن نقول: إن الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي ترجم «هيلانة الجميلة»؛ بوصفها أول عمل مسرحى إبداعي يقوم بترجمته. وهذا المجال؛ يُعدّ مجالاً جديداً يُضاف إلى تاريخ الشيخ رفاعة الطهطاوي وإلى إنتاجه العلمى المُترجم. وإذا علمنا أن الطهطاوى ترجم المسرحية عام 1868 – كما سيتضح لنا – فهذا يجعلنا نقرّ بأن الطهطاوى أول مصرى يترجم مسرحية؛ مما يعنى إنه – حتى الآن – رائد الترجمة المسرحية فى مصر!

النسخة المجهولة

> "هيلانة الجميلة» هى أول عمل مسرحى إبداعى يقوم الطهطاوى بترجمته.. وهو مجال جديد يُضاف إلى تاريخه وإنتاجه العلمى المترجم

عندما أشار سادجروف إلى إشراف الطهطاوى على ترجمة مسرحية «هيلانة الجميلة»، كان يتمنى أن يحصل على نسخة من هذه الترجمة؛ ولكنه لم ينجح! وعندما اكتشفت أن الطهطاوى لم يشرف على الترجمة؛ بل هو من قام بترجمة المسرحية بنفسه، كنت أحلم بحصولى على نسخة من هذه الترجمة، وأعدّ الحصول على هذه النسخة حلماً بعيد المنال! ولكن الحلم تحقق، ونجحت في الحصول على نص مسرحية «هيلانة الجميلة» المحفوظ حتى الآن بدار الكتب المصرية، وإليكم وصفه:

على الصفحة الأولى مكتوب بالريشة والمداد الأسود كلمات يُفهم منها؛ أن هذه النسخة ملك البرنس «إبراهيم حلمي باشا» ابن الخديوي إسماعيل، ومؤرخة في 26 مايو 1888. والصفحة الثانية بها عنوان «أسماء أصول مشاهير الرجال والنساء المذكورين فى الألعاب المبينة في هذا الكتاب وبيان مناصبهم ووظائفهم»، والمقصود بهذا العنوان أسماء شخصيات المسرحية! وجاءت مرقمة في عمودين، الأول يحمل عنوان «أسماء»، والآخر «أوصاف»: ومن هذه الأسماء والأوصاف على سبيل المثال: باريس: ابن الملك بريام ملك تروا «بقرب اسكي أزمير»، مينيلاس: ملك سبرطة باليونان،

مجلة وادي النيل

أغاممنون: ملك ملوك اليونان، هيلانة: ملكة سبرطة وزوجة مينيلاس، كلكاس: رئيس كهنة هيكل المشترى، أشيل: ملك فيسيوتيد باليونان، أوريست: ابن أغاممنون ملك الملوك .. إلخ.

ولأن المسرحية؛ أول مسرحية تتم ترجمتها في مصر بالعربية، وجدنا الطهطاوى يكتب كلمة اللعبة بدلاً من الفصل! فعندما يقول «اللعبة الأولى» فإنه يقصد «الفصل الأول». كذلك كان يقول كلمة «الملعب أو الملعوب» على المنظر أو المشهد! فعندما يقول: «الملعب الخامس» أو «الملعوب السادس» فإنه يقصد بذلك المنظر الخامس أو المشهد السادس. والمسرحية تقع فى 86 صفحة من القطع الصغير، ومنشورة في ثلاث لعبات — أى ثلاثة فصول — اللعبة الأولى تتألف من أحد عشر ملعباً، واللعبة الثانية من اثنى عشر ملعباً، واللعبة الثالثة تتكون من ثمانية ملاعيب؛ أى ثمانية مناظر أو مشاهد !!

أما أحداث نص «هيلانة الجميلة»، فتدور في جو أسطورى حول ربة الجمال «الزهرة»، التي ترسل رسالة إلى «كلكاس» رئيس كهنة معبد المشتري تأمره فيها بأن يسلم «هيلانة» ملكة أسبرطة

الخديو إسماعيل

إلى «باريس» ابن الملك بريام ملك طروادة؛ لأنها حكمت بحبهما. وبالفعل يحضر «باريس» ويقع فى غرام هيلانة، التي بادلته الغرام أثناء غياب زوجها «مينيلاس» ملك أسبرطة. وعندما يحضر الزوج ويضبط زوجته في أحضان باريس، يفضحهما في مشهد حضره كل الملوك. ويعيش الزوج في أزمة نفسية ليقينه بحدوث الخيانة من قبل زوجته هيلانة، وزوجته تحاول إقناعه بأن ما حدث .. حدث في المنام لا في اليقظة. وعندما تعلم «الزهرة» تقسو على اليونان بأكملها، بأنها أرسلت إلى أهلها لعنة هروب الزوجات من أزواجهم، وهروب الأزواج من زوجاتهم! فيتدخل الملوك وأنصاف الآلهة والشخصيات الأسطورية أمثال: «أغاممنون، وأشيل، وأجاش»، في محاولة إقناع «مينيلاس» بأن يتنازل عن زوجته لباريس إرضاء للزهرة وإبعاد اللعنة عن شعبه؛ ولكن الزوج تحايل على الأمر بأن أرسل رسالة إلى كبير كهنة معبد الزهرة، يطلب منه الحضور من أجل التفاهم معه في حل آخر يُرضى الزهرة. وبالفعل يحضر الكاهن الأعظم فى سفينة ضخمة، ويقترح على «مينيلاس» أن يأخذ زوجته «هيلانة» إلى جزيرة نائية تنحر فيها عشرة عجول بيضاء قرباناً للزهرة، وهذا

هـو الحل البديـل لترضية الزهـرة. ويوافق مينيـلاس والشـعب اليونانـى، وتسـتقل هيلانـة السـفينة برفقـة الكاهـن، الذى ما لبـث وأن كشـف عـن حقيقتـه لمينيـلاس وشـعبه – بعـد أن أبحرت السـفينة – بأنه العاشـق باريس! وهنا ثار مينيلاس وشـعبه وتوعـدوا باريـس بأنهـم سـيذهبون إليـه ويهدمـون عليـه مدينـة طـروادة. وبذلـك تنتهـى القصة.

وهنـاك ملاحظتـان مهمتان في نسـخة نـص «هيلانـة الجميلـة» المترجـم: الأولى أن تاريـخ طباعتهـا مذكـور في آخر سـطر من آخر صفحة رقـم «86»، ومكتوب الآتى: "طبـع بمطبعـة بـولاق 17 رمضـان سـنة 1285"، وهذا التاريـخ يوافق 31/12/1868. وحسـب اجتهادنـا فى البحث، لـم نجد أية إشـارة لنشـاط التياترو الفرنسـى قبل هذا التاريـخ، بـل وجدنـا بعـده وتحديـداً يـوم 21 يناير 1869، عندمـا حضـر الخديـوى برفقـة ولى عهد إنجلترا وزوجته وشـاهدوا عرضـاً مسـرحياً .. وهـذا الخبـر لا أظنه خبـر افتتـاح التياتـرو الفرنسـى؛ لأنه جاء فاتـراً، لا يـدل علـى شـيء مهـم سـوى أن الخديـوى وضيفه شـاهدا المسـرح!

وبنـاء علـى ذلـك، فنحـن نبحـث عـن يـوم افتتـاح التياتـرو الفرنسـي بالأزبكية، وهو يوم يقـع بعد يـوم 31/12/1868 تاريخ طباعـة مسـرحية «هيلانة الجميلـة»، وقبل يـوم 21/1/1869 تاريـخ حضـور الخديـو وولـى عهـد إنجلتـرا دوغال إلى المسـرح! وفـى ظنـى أن هـذا اليـوم هـو السـابع عشـر من ينايـر 1869؛ لأنه يـوم الاحتفال باعتـلاء الخديوى إسـماعيل عـرش مصر – الـذي بـدأ فـي هـذا اليـوم عـام 1863 – والاحتفـال بعيـد الجلـوس الخديـو، هو أنسـب يـوم لافتتـاح أول مسـرح رسـمى حكومـى فـي الأزبكيـة!! ومـما يعضد هذا

> **ترجم الطهطاوى المسرحية عام 1868، وهو ما يجعلنا نقرّ بأن الطهطاوى أول مصرى يترجم مسرحية؛ مما يعني إنه رائد الترجمة المسرحية فى مصر**

الأمـر، قـول عبد الله أبـو السـعود أفندى بـأن الطهطاوى ترجم المسـرحية بأمر من الخديوى إسـماعيل كما مـرّ بنا!

الملاحظـة الأخرى في النص المنشـور لترجمـة مسـرحية «هيلانـة الجميلـة»؛ تتمثـل فى عدم وجود اسـم الشـيخ «رفاعة الطهطـاوى» علـى النص؛ بوصفـه مترجماً أو كاتبـاً أو مؤلفـاً. وهناك احتمـالان لهذا الأمـر: الأول، أن صفحـة الغـلاف مفقودة أو منزوعـة، وكان بها اسـم الشـيخ رفاعة! وهـذا الاحتمـال مـن الصعب قبولـه؛ لأنه يعنـى أن بقيـة الـ1500 نسـخة – عربـى وتركـى كمـا جـاء فـى الوثيقـة – مـن المسـرحية بهـا الصفحة المنزوعـة، والتى بهـا اسـم الشـيخ رفاعـة! وهـذا الأمر لو كان حقيقيـاً لكان أمر قيام الشـيخ بترجمة المسـرحية معروفـاً للجميـع – وبالأخـص دارسـى إنتـاج الطهطـاوى – وهـو الأمـر الـذى لـم يحدث!

لـم يبـق أمامنـا إلا قبـول الاحتمـال الآخر، وهو أن الشـيخ رفاعـة هو من طلب عـدم وضع اسـمه على ترجمة المسـرحية عندمـا نُشـرت! لأنـه كان مُجبـراً علـى ترجمتهـا بأمـر مـن الخديـو إسـماعيل! والسـرّ في ذلك أن الشـيخ رفاعـة، لا يريد أن يرتبط اسـمه بالمسـرح فـي مصر؛ لأن هـذا الارتباط يعني ارتباطـه بالعوالم – أي

دار الأوبرا الخديوية

بالغـوازى – ومـا فيهـم من وقاحـة!! وهذا التصور نشـره الطهطاوي عام 1833 عندما نشـر ترجمته لكتاب «ديوان قلائد المفاخر فـي غريـب عوائـد الأوائـل والأواخـر» للمؤلـف الفرنسـى «ديبنـج Depping»، وأضـاف إلـى الترجمة قاموسـاً شـرح فيه بعض الكلمـات، كان منها كلمة «سـبكتاكل» والمقصـود بهـا المسـرح، حيـث شـرحها الطهطـاوي هكذا:

"سـبكتاكل: اسـم لملعبة ببلاد الإفرنج، يلعـب فيهـا تقليـد سـائر مـا وقـع. وفـي الحقيقـة إن هـذه الألعـاب هـي جـد فـي صـورة هزل. فإن الإنسـان يأخذ منها عبراً عجيبـة لما أنـه يـرى فيها سـائر الأعمال الحسـنة فيقتفيهـا، والسـيئة فيتحاشـاها لمـا يـراه مـن مـدح الطيـب وذم الخبيث. حتـى إن الإفرنج يقولـون إنها تهذب أخلاق الإنسـان. ومـع اشـتمالها علـى المـزح الممـدوح فيهـا أيضاً كثيـر مـن المبكيات والمحزنـات. وصـورة هـذه السـبكتاكلات عنـد الإفرنـج إنـك تجـد هيـكلاً عظيمـاً مسـقوفاً بقبة، وفيه عدّة أدوار. وكل دور به أروقـة موضوعـة حول القبة مـن داخل فى جوانـب الهيـكل، وفـي جانب مـن الجوانب أيضاً مقعد متسـع يكشـفه سائر الجالسين في هـذه الأروقة. بحيث أن سـائر ما يلعبه اللاعبـون فـي المقعـد، يراه سـائر من فى الهيـكل. وهو منوّر بالنجـف العظيم، وتحت ذلـك المقعـد محل للآلاتية. وهـذا المقعد يتصل برواق فيه سـائر آلات اللعب وسـائر الأدوات اللازمـة للألعـاب، التـي تظهـر فـي ليلة اللعـب ولجميـع النسـاء والرجال المعديـن للعـب فيهيئـون ذلـك المقعـد على حسـب مـا يقتضيـه اللعـب المطلوب منـه. فـإذا أرادوا تقليـد سـلطان مثلاً في حكايـة سـائر مـا وقـع منـه، صـوروا ذلك المقعـد فـي شـكل سـراية بهـا كرسـى، وعليه شـخص جالس في شـكل السـلطان المقلـد، وقصـوا قصتـه، وجعلـوه يتكلـم ويُتكلـم معه وهكـذا. ومدّة تجهيـز المقعد يرخون السـتارة لتحجـب المقعد عن أعين الناظريـن، ثـم يرفعـون السـتارة ويلعبون. واللاعبـون واللاعبـات بهذه الهياكل أشـبه بعوالـم مصـر لا فـي الوقاحة؛ فـإن أرباب هـذه الحرفـة عنـد الإفرنـج أربـاب أدب وحيـاء في مدّة لعبهـم؛ وإن كانت اللاعبات فـي الغالب غير عفيفـات. ومن الغرائب إن كلاً مـن اللاعب أو اللاعبـة يحفظ دواوين الأشـعار الأفرنجيـة والنكات والنـوادر؛ بل ومسـائل من العلـوم البرانيـة الغريبة، حتى إن مـن رآهم ربما نظمهم فى سـلك العلماء لا العوالم".